

المحاضرة السادسة عشرة الفلسفة الإسلامية: علم الكلام: التيارات الكلامية:

رابعاً: التيار الصوفي (١)

أحد فروع الفلسفة الإسلامية، وهدفه شوق النفس الإنسانية للاتصال بخالقها، ويرى أهل التصوف أن المصدر المعرفي عندهم هو الكشف أي ما يكشفه الله لعبده إذا سار في طريق التصوف. واختلف في أصل كلمة تصوف : هل تعود إلى ليس الصوف أم إلى صفاء النفس ، أو إلى الصف الأول من الصلاة ، أو صوفة القفا (مؤخرة الرأس) ، أو الصفة وهو مكان المسلمين الأوائل في المسجد النبوي ، والرأي الأول هو الأرجح .

ينطلق التصوف الإسلامي مما جاء في القرآن والسنة ، وسيرة السلف الصالح ، فالقرآن يدعو إلى الزهد في ملذات الحياة ، وعدم الانجراف وراء تيار الشهوات ، وبعد موجة الفتوحات خرج العرب إلى الأمصار وحصلوا على غنائم الفتوحات مما أدى لتكون طبقات اجتماعية متباينة ماديا ، مما دفع عدد من الصحابة للوقوف ضد تيار الترف ومنهم الصحابي أبي ذر الغفارى وحذيفة بن اليمان وغيرهم ، وكان لسياسة توزيع العطاء في عهدي الخليفتين عمر وعثمان سبب في تباين طبقات المجتمع ماديا ، ولما قامت الدولة الأموية ازدادت في توجهاتها الدينية وازداد الثراء عند البعض والفقر عند البعض الآخر ، مما أدى لظهور عدد من التابعين الرافضين لتيار الملذات وفي مقدمتهم أئمة أهل البيت (ع) كإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) ، وولده الإمام محمد الباقر (ع) وحفيده الإمام جعفر الصادق (ع) ، وفي البصرة ظهر الحسن البصري وهو من كبار التابعين ، ورابعة العدوية التي عرفت بـ شهيدة العشق الإلهي، التي كانت مثلا في خلوص التصوف والذوبان في العبادة ، وقد اتخذت وسائل للسير في طريق الله ، ومنها التهجد وقيام الليل ، واستذكار الموت ، واتخذت مشجبا من القصب طوله ذراعين ، وضعت عليه أكفانها تتأمله على الدوام ل تستذكر الموت ، وكانت في حالة من البكاء المستمر وقد سمي عصرها بعصر البكائين ومنهم الإمام زين العابدين (ع) ورباح بن محمد ، وقد عرفت رابعة بالكرامات ، إذ قيل أنها أرادت أن تحج فاستقبلتها الكعبة ، وتميزت بالحب الإلهي ، أما في بغداد فكان المحاسبي لقب بذلك لشدة محاسبته نفسه ، و منهم الجنيد والحلاج وغيرهم .

المقامات: قال المتصوفة بنظرية المنازل أو المقامات أو الأحوال، وهي سبعة مقامات يسلكها الصوفي ليصل إلى الله، وهي: التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكّل والرضا بقضاء الله ؟ وبعد ذلك ينتهي الصوفي إلى لقاء الله والذي يسمى المرید أو السالك ، فتكتشف له المعرف ، في ما يسمى بنظرية الإشراق ، فمن خلالها يحصل على المعرفة مباشرة من الله ، وهذا يستخدم المتصوفة أساليب متعددة في الهيام والذوبان الصوفي في الله ، ف منهم يلازم التفكير في حجرة مظلمة ، أو يذهب نفسه بقلة النوم ، وينشأ الأوراد والأدعية في ما يعرف بالذكر ، ويصاحبها التغنى والرقص ، ومنهم من يستخدم الطعن بالسكايين وابتلاء النار . وأكمل المتصوفة على الحب الإلهي الذي شمل جميع الناس والأديان والمذاهب، يقول ابن عربي :

إذا لم يكن دينه إلى ديني دان
فمرعلى لغزال ودير لرهبان
والواح توراة ومصحف قران
ركابه فالحب ديني وإيماني

لقد كنت فيما مضى أنكر صاحبى
وقد صار قلبي قابلا كل صورة
وبيت نيران ومبعد طائف
أدين بدين الحب أنى توجهت

ويعتقد الصوفية بحلول الذات الإلهية فيهم فيما عرف باسم الحلول ، حتى قال الحجاج ((ما في الجبة إلا الله وأنا)) ، وبعدها يصل الصوفي لإتحاد الذات الإلهية بالصوفي فيكونان شيئا واحدا ، فقد قال البسطامي ((سبحانى ما أعظم شانى))، وذلك يؤدي لظهور ظاهرة الشطح : وهو تعبير عما تشعر به النفس الإنسانية حينما تصبح لأول مرة في حضرة الإلهية، وهناك عدة عناصر يجب توفرها في ظاهرة الشطح، وهي: ١ - شدة الوجود أي الذوبان في الله. ٢ - الوصول إلى مقام الاتحاد مع الله. ٣- أن يكون الصوفي في حال سكر روحي. ٤- أن يسمع من داخل نفسه هاتفا إلهيا يدعوه للاتحاد. ٥- أن يتم هذا كله والصوفي في حال من عدم الشعور.

دور أبي حامد الغزالى في التصوف: كان للغزالى ت ٥٠٥ هـ دور في جعل التصوف جزءاً من الدين ومحبلاً لدى علماءه، فدرس قضايا الحلول والوحدة في كتابيه المنفذ من الضلال وإحياء علوم الدين، ودرس مؤلفات المحسبي الصوفي، ويرى الغزالى أن كل فرد يعطى من حقائق الدين بقدر ما يستطيع فهمه ويحتمل عقده، ولقد أثرت الآراء التي نادى بها الغزالى بحركة التصوف في جانبيين، التصوف العقلي والطرق الصوفية.

أولاً: التصوف العقلي: إن ما يميز هذا الاتجاه هو إمكانية الوصول إلى ما وراء العالم الملموس الذي هو مجرد مظهر لبلوغ عالم الحقائق المعقولة والروحانية عن طريق حدس وجاذبي وهو ما يسمى بالمعرفة. إن أهم الموضوعات التي تكلموا فيها في هذه المعرفة، موضوع الله نور السموات والأرض واشهر من تكلم فيه السهورري ت ٥٨٧ هـ الذي رد كل شيء في العالم إلى نور الله وفيضه منطلقاً مما ورد في سورة النور ((الله نور السموات والأرض مثل نوره ...)), فالله نور الأنوار ومن نوره خرجت الأنوار الأخرى، فالنفس تصل إلى بهجتها بواسطة الإشراق والفيض الإلهي وإذا تجردنا من الملذات الجسمية تجلى علينا نور الهي لا ينقطع مده علينا. ولكن السهورري اتهم بالانحراف وقتل خنقاً.

٢ - موضوع الإنسان الكامل : تكلم فيه ابن عربي ت ٦٣٨ هـ الذي من أهم مؤلفاته الفتوحات المكية وفصوص الحكم ، وابن عربي هو صاحب نظريّة المحبة الإنسانية الشاملة ، فأي شيء في الإنسان أصفى من روحه وأنقى من قلبه واطهر من نفسه إذا تجرد وعاش على سجيته ودان بالمحبة ثم تحرر من الأنانية فصار إنساناً حقاً وادمياً صدق ، تلك كانت دعوة المسيح (ع) تحت راية المحبة ورسالة النبي محمد (ص) تحت لواء الأخوة ، فمن هاتين الدعوتين استمد ابن عربي الحب الذي امن به . وعند ابن عربي إن السبيل للوصول للعلم الرباني على المؤمن المتائب بآداب ربه الحفاظ على شريعته ، وان يتلزم بالخلوة والذكر ويفرغ فكره مما سواه ويقعد فقيراً عند باب ربه عندها يمنحه من العلوم والأسرار الإلهية والمعارف الربانية ما يغيب عنها كل متكلم لأنها علوم وأسرار و المعارف وراء أحكام العقل . وتكلم ابن عربي عن الإنسان الكامل فيرى إن الإنسان هو الحادث الأزلي والنوى الدائم الأبدى والكلمة الفاصلة الجامعة ، فقيام العالم بوجوده ، فهو من العالم كفصل الخاتم وهو محل النقش والعلامة التي يختتم بها الملك على خزانته ولذا سماه خليفة ، لأنه تعالى الحافظ به خلقه كما يحفظ الختم الخزائن ، فلا يزال العالم محفوظاً مادام فيه الإنسان الكامل . يقوم مذهب ابن عربي على نظرية الكلمة ، والكلمة بنظره :

١ - إن الكلمة الأزلية هي حقيقة الحقائق ومبدأ العالم ، وهذا يتعلق بعلم الوجود .

٢ - من الناحية الصوفية تعبر الكلمة عن الحقيقة المحمدية بكل نبي هو كلمة ولكن النبي محمد (ص) هو الكلمة وجميع كلمات الله التي تجلى في الأنبياء تتحد في قطب واحد كلي هو الروح المحمدي أو الحقيقة المحمدية ، ويرى ابن عربي أزلية روح النبي محمد (ص) باعتبار انه القطب الواحد للكون .

٣ - من الناحية الأسطورية ترمز الكلمة إلى أسطورة الإنسان الكامل .

ثانياً : الطرق الصوفية : انتشرت هذه الطرق بعد عصر الغزالى وسعت للوصول إلى قلوب الناس ، وتقربيهم إلى الله بالأدعية والأذكار وخصص الغزالى صفحات طويلة من كتابه إحياء علوم الدين للذكر والسماع ، وبدأت هذه الطرق تتكون منشيخ ومربيه كالعلوانية والرافعية والادهمية والبسطانية ، وتبورت في القرن السادس الهجري كالطريقة الرفاعية نسبة للشيخ احمد الرفاعي ت ٥٨٧ هـ ، منهم الجباوية يتميزون بلبس السواد وإغمام القضبان والسكاكين الحادة في أجسامهم وابتلاع النار ، والطريقة القدارية نسبة لعبد القادر الكيلاني ت ٥٦١ هـ الذين يرددون اسم الله ، والطريقة البدوية نسبة إلى احمد البدوي ت ٦٧٥ هـ وذكرهم هادئاً ويرددون اسم الله عالياً دون تمزيق الأجسام أو ابتلاع النار ، والطريقة النقشبندية نسبة إلى بهاء الدين نقشبند ت ٧٩١ هـ . لقد كان لهذه الطرق دور في نشر الإسلام في مختلف أرجاء العالم الإسلامي خاصة القرى والأرياف النائية ، لكن بمرور الزمن ابتعد بعض أتباعها عن منهج

أسلافهم وانغمسوا في ملذات الدنيا وانشغلوا في خصوماته الدينية ، وكان لبعضهم دور في مقاومة الاستعمار لا سيما في شمال أفريقيا كالطريقة القادرية في الجزائر والسنوسية في ليبيا . وبعد عصر ابن عربي جمع ابن سبعين الأندلسي ت ٦٦٧ هـ بين الفلسفة والتصوف ، وبعد عصر جلال الدين الرومي ت ٦٧٢ هـ ينتهي العصر الذهبي للتصوف ويبدأ عصر التقليد ففي القرن الثامن ظهر الصوفي عبد الرزاق ت ٧٣٠ هـ الذي يؤمن بوحدة الوجود ، لكنه جوبه بخصوصة شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني ت ٧٢٨ هـ الذي دخل في معركة جدلية مع الصوفي النصر المتبني في مصر وتم تبادل عدة رسائل بينهما حول عقيدة الاتحاد ، ومن هنا بدأت الخصومة على أشدتها بين المتصوفة وبين السلفية ، واصدر ابن تيمية فتوى بحرمة زيارة أضرحة الأولياء بما فيهم النبي محمد (ص) وحرمة التوسل به (ص) ، وقد برز هذا الأمر عملياً على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية في القرن ١٨ هـ الذي تم هدم جميع قبور الصحابة والأولياء وأهل البيت (ع) .

ومن المتصوفة المتأخرین الشعراوی القاهري الذي سلك طریقة ابن عربی دون الأخذ بنظریة وحدة الوجود ، وأسس طریقة للدراویش وهي فرع من الطریقة البدوية ، ولكتاباته تأثیر في العصر الحديث في محاولة تقديم تصوف جديد .